

مجلة أنثروبولوجية (الأديان) المجلد 20 العدد 02 2024/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

محمد أركون وحوار الأديان

Muhammad Arkoun and the dialogue of religions

\* حسين حيمر

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر

himeurhocine@yahoo.com

تاريخ القبول: 2024/06/01

تاريخ الاستلام: 2024/05/06

الملخص:

إن البعد الإنساني هو المحور الأساس في حوار الأديان، وثقافة التسامح والعيش المشترك ما كانت لتكون لولا تحاور النخب واتحاد الديانات من أجل عالم ينشد السلام ويحترم الإنسان، وهنا ينبغي الاعتراف أن تجاوز الخصومات والمتضادات وكل أنواع العنف التي ما أنفت تتفاقم بين ما ندعوه الإسلام والغرب، وهذا ما دعا إليه المفكر محمد أركون. وتهدف هذه الورقة البحثية إلى حفريات في مشروع أركون النقدي للعقل الإسلامي، وهو الذي أفنى عمره في تفكيك بنية العقل الإسلامي، وقراءة الظاهرة الدينية، وبلوغ قصدنا من هذا العمل اعتمادنا على منهج الحفر الجينيولوجي، بُغية الوصول إلى جذور المشكل لتأسيس حوار بين الأديان التوحيدية،

الكلمات المفتاحية: أركون، الحوار، الأديان، العقل، الإسلام.

**Abstract:**

The human dimension is the main axis of interfaith dialogue, and the culture of tolerance and coexistence would not have been possible without the dialogue of the elites and the union of religions for the sake of a world that seeks peace and respects humanity. Here we must acknowledge that transcending the rivalries, antagonisms and all types of violence that continue to escalate between what we call Islam and the West, This is what the thinker Muhammad Arkoun called for. This research paper aims to excavate

\* المؤلف المرسل: حسين حيمر، الايميل: himeurhocine@yahoo.com

Arkoun's critical project of the Islamic mind, which spent his life dismantling the structure of the Islamic mind and reading the religious phenomenon. To achieve our goal in this work, we relied on the genetic excavation approach, in order to reach the roots of the problem to establish a dialogue between monotheistic religions.

keywords : Arkoun, dialogue, religions, reason, Islam.

#### مقدمة:

لقد شكل حوار الأديان موضوعاً من الموضوعات التي طرحها المفكر محمد أركون في ظل مشروعه الفكري "نقد العقل الإسلامي"، ويكتسي هذا الموضوع أهمية بالغة من حيث المنطلق لأن حوار الأديان صار موضوعاً يشغل الفكر الإنساني على كل المستويات والفضاءات العالمية، ليس بحسب راهنية الطرح فقط، بل بسبب النقاشات الدائرة حوله، فكيف تأسست معالجة محمد أركون للموضوع بحسب رؤيته المعاصرة كما يدعي؟

إن هدف هذه الدراسة هو الحفر وتفكيك بنية المشروع النقدي عند محمد أركون، لقراءة الظاهرة الدينية موضوعياً، ومن أجل ذلك استخدمنا التاريخي، بغية معرفة جذور هذه المسألة.

ومن فرضيات تحقيق حوار الأديان في الضفتين الشمالية والجنوبية للمتوسط، العقلية الجديدة للتعايش مع الآخر لمواجهة العوائق، والبحث عن الانسجام بين الثقافات المعاصرة المتوسطة، والدعوة للتوحيد الفكري لهذا الفضاء المتوسطي لتكرس ثنائية الغرب والإسلام. وبناء ثقافي وفكري مشترك، حيث تتجلى نزعة أركون الإنسانية.

أولا- مدخل للحدث المتوسطي:

1.1.1. توطئة:

يُعرف الحدث من الناحية الاجرائية بأنه مجموعة من الحقائق التي تخلف موقف من المواقف التاريخية أو النفسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية...، ويستخدم مصطلحي الضرف والحال، كمرادفات لكلمة الحدث، وتكون الأحداث الجارية والهامة لا سيما منها الاضطرابات السياسية والاجتماعية والثقافية... مثل أحداث مايو 1968 في فرنسا لب الحدث.

نشير في البداية على سبيل التسليم أن محمد أركون Arkoun Mohamed : مثقف، مؤرخ، وفيلسوف جزائري، ولد سنة 1928 بتاوريت ميمون (آيت يني) قرية بالقبائل الكبرى (تيزي وزو حاليا)، ويتموقع فكره ضمن الجهود النقدية للدوغماتيات الأصولية التي عرفها الإسلام، خاصة بعد عصر الانحطاط في القرن الرابع عشر الميلادي إلى يومنا، ويدافع أركون عن إسلام الذي يعاد التفكير فيه باستمرار. وقد رافع أركون لتدمير الأحكام والقوالب الفكرية الجاهزة المعروفة بسلبيتها. مؤكدا من منظور آخر أن الغرب لا يمثل دائما الشيطان المادي، الأخلاقي، أو الأصولي، الذي يحمي الإرهاب. كان أركون ولا يزال من أبرز الأنثروبولوجيين الذين يعلمون كيفية التفكير في الدين، والأنسنة داخل السياقات الغربية والشرقية. ومنه كان الاقتضاء الذي يجتنبنا على العودة إلى مشروعه الأساسي وتحديدا إلى رؤيته العملية التي تؤكد على ضرورة التعامل مع الإسلام باعتباره علما. وأن نجعل من الظاهرة الدينية الموضوع الأساسي لفهمه، ونحن بحاجة لفكره خاصة بعد وفاته سنة 2010، في هذا الزمن المليء بالظلمة، وعالم مليء بالحماقات التي يتبناها فقهاء السلطة، ومنه التعجيل بالكشف عم يحمله الإسلام من عقلانية تنويرية، والمتأخر هو في حقيقة الأمر هو أركون المنفتح كلية على قضايا الفضاء المتوسطي، إذ وإلى غاية أيامه الأخيرة أبقى إلا أن يترك لنا إرثا يحثنا على ضرورة الالتفات إلى ثقافات وأديان المتوسط، وذلك من خلال تناولها بالبحث والدراسة العلميتين.

إن بلدان الفضاء المتوسطي وشعوبها كلما تجاورت، وتقاربت فيما بينها، أو تخاصمت أحيانا أخرى داخل الفضاءات الاجتماعية والسياسية. وكلما ازدادت عنفا، كلما تضاعف عدد المؤرخين والجغرافيين والأنثروبولوجيين، والقائمين على الأديان وازداد تشبثهم بضرورة شق الطريق نحو حوار عقلائي بين أديان هذه البلدان يحد من شدة التعقيد وزيادته.

وغالبا ما يقف أركون عند الاعتبارات الأنثروبولوجية، مانحا لها الأسبقية عندما يرتبط الأمر بالبحث عن الطرق المؤدية إلى حوار فعلي لا وهمي بين الأديان التوحيدية الثلاث. فالمتوسط *La méditerranée* في تصور أركون مختلف تماما عن ذلك الذي جعل منه بول فاليري *Paul Valéry* مجرد آلة لإنتاج الحضارات. ويذهب أركون إلى أبعد من ذلك ليرى مصنعا ينتج التعارضات والتناقضات، مفضلا التمرکز على ذاته. ولأجل إنقاذه من هذه التفاوتات يدعو أركون إلى معاودة إقامة الوعي التاريخي، ووعي يكون في اعتقاده قادر على تجنب السقوط في الهفوات، سواء كانت إرادية أو غير إرادية، مثل تلك المرتبطة بالتنكر، والتزوير والتمثل الميثو- تاريخي *Mytho historique*، والتي تظهر في الغالب نزوعا حادا نحو نشر الحروب، وتأجيج التوترات، مفضلة الغزو والهيمنة، والسيطرة بصورة هستيرية. إن المتوسط يقول أركون: "لكي يغدو فضاء للفلسفة، والعقلنة، فلسفة للغيرية يجب أن يحدث تضافرا للجهود المتواجدة لدى كل المناضلين المتوسطيين بهدف التمكن من إنجاز جذعا مشتركا خاص بمجمل التربية تحديدا. بين البلدان المتجاورة في الفضاء المتوسطي" (محمد أركون، 2001 ص 43).

ومن هذا المنطلق تتحدد مهمة أركون، من دراسة شروط إمكانية إجمال كل من الإيتيقي، والتعقلي والروحي، والثقافي للفضاء المتوسط، بعيدا عن كل تلك الانشاقات، وعن الأنظمة الأصولية القائمة على الإقصاء، وعلى حب الغزوات، والتفنن في رسم الحدود السياسية. ومهما يكون الأمر فإن أركون مؤمن بضرورة وخصوبة الإنسانية التي يمكننا أن نضعها في أولوياتنا الفكرية.

## 2.1. جغرافية الحدث المتوسطي:

تبدو إذا منطقة المتوسط جد ملغمة، بحيث يمكن القول بأنها متعرضة أكثر من وقت مضى إلى انفجار عنيف يعرض كيانها إلى الدمار. فهي لم تعد تعكس صورة التوتر، واللاإستقرار، والإرهاب والأصولية وحسب، وإنما الأفطع من ذلك أنها صارت عاجزة على حل الأزمات المرتبطة بها. وعليه فإن استقرار المنطقة المتوسطية يمر عبر الوعي بضرورة إحداث وحدة وتضامن حقيقيين بين البلدان المتجاورة، بتقوية المكتسبات الفعلية، وتنمية الفهم والتسامح بين ضفتي المتوسط. وهنا يكمن التحدي الثقافي الذي يجب الالتباه إليه والتعامل معه بحذر، لكوننا سنكون أمام أنماط ثقافية محكومة بقوالب، ورؤى كاريكاتورية عن ثقافة كل بلد، خاصة

ما تروج له اليوم وسائل الإعلام من أكاذيب وأوهام تمس على وجه الخصوص شعوب منطقة الجنوب من المتوسط، حيث نجد عرضهم في صور سيئة جاعلة منهم أهل إرهاب، وبربرية، في حين منطقة الشمال من المتوسط تعيش ثراءها الذي يرغمها بإقصاء جنوبها من دائرة الحداثة. يؤدي مثل هكذا مواقف إلى استحالة الحديث عن إمكان وحدة متوسطة مع مواصلة الشمال ترويج صور معادية للجنوب. بالإضافة إلى ذلك ثمة هوة ثقافية سحيقة على مستوى تنمية التعليم في كلتا الضفتين. ففي الوقت الذي نجد أمية واسعة منتشرة بشكل مخيف على مستوى الضفة الجنوبية، حيث تصل إلى 40% نجد خلافا لذلك في الضفة الشمالية، حيث تصل إلى مجرد 02%. وفي الوقت الذي يتم فيه تشجيع البحث من خلال تخصيص أموال معتبرة في بلدان هذه الأخيرة، حيث تبلغ ميزانية البحث العلمي فيها إلى 02% و 03% من الدخل القومي، نجد هذه الميزانية شبه منعدمة تصل أحيانا إلى 0.1 أو 0.3% من الدخل القومي في الضفة الجنوبية. إذ الهوة الواسعة بين الضفتين جلية، مما ينعكس سلبيًا على الجهود الموجهة نحو ابتكار الهوية المتوسطة، وهذا ما يدعونا في الوقت ذاته إلى شق الطريق نحو مضاعفة العمل للوصول لحوار حقيقي بين البلدان المتجاورة، وإنهاء على الفور الحوار غير المؤسس لا اقتصاديًا، ولا سوسولوجيًا ولا ثقافيا.

بادئ ذي بدء ستكون الإشكالية الأساسية التي حاول المفكر الراحل محمد أركون الإجابة عنها من خلال البحث والتحقيق، المدخل الرئيسي إلى عملنا هذا، من موقع تعميق النظر من جهة ومواصلة البحث في ما تركه المفكر من قضايا فكرية لا تزال عالقة من جهة أخرى، وهناك قضايا فكرية متأخرة شكلت الهاجس الفكري لأركون، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، وعلى رأسها نجد: الفضاء المتوسطي، فهل يمكننا تفعيله بصورة جديدة؟ وهو سؤال المعنى الحاضر بقوة داخل الفضاء المتوسطي، وذلك من خلال اللجوء إلى واقعية تطبق فلسفة التاريخ، التي هي نفسها بحاجة إلى إثبات وتحليل. إن سؤال المعنى هذا محكوم حسب محمد أركون، ولا يزال إما بالغرق في روحانية حاملة، أو في مثالية متأملة، أو في نداءات نوستالجية.

لقد فتح محمد أركون العديد من المنافذ قصد التمكن من إقامة الأرضية التي نفكر من خلالها في هوية الفضاء المتوسطي التي بإمكانها توحيدنا نحن شعوب الضفتين. طبعًا من دون حروب دائمة، لكن من دون سلم دائم هو الآخر. ويغادر أركون من خلال هذه الرؤية الأولية القراءات التي نسجت من حولها خطابات وعظمية، وتبشيرية. ومثل هكذا توجه، إذ وحده خطاب التنوير بإمكانه حمل المنظورات المغايرة، والمحمولة بعمق إيمانها بالنهوض للكشف عن الهوية المتوسطة. إذ ثمة العديد من الاقتراحات العلمية التي بدأت تشق

فعلا طريقها خاصة من الجهة الشمالية للمتوسط، نحو التحقق، بعيداً كل البعد عن القراءات الصادرة عن المؤتمرات، والمصاغة بصورة متسرعة وسطحية فثمة اليوم منظمات، وهيئات حقوقية، وتربوية وبمخية بدأت تجسد طموح العديد من مفكري التنوير، على رأسهم محمد أركون، بالإضافة إلى أسماء أخرى كهشام جعيط وأدونيس وهشام صالح وعبد الوهاب المؤدب... كلهم أكدوا على ضرورة تدشين فلسفة تفجيرية. تفكك الأسبجة الدوغمائية، التي احتمت بما ولمدة طويلة الخطابات الأصولية، إذ من غير الممكن إدراك الأسئلة الكبرى وأنماط الصراعات المبنية على تسميات غير واضحة، وغير دقيقة، ولا حتى متفق عليها، "فقد تُسعف عمليات ضبط محتوى المفاهيم والاتفاق على محتواها بإمكانية تحقيق تواصل قادر على إقامة جسور من التفاهم تتيح تجاوز مبدأ التجاني المتبادل، وتمكننا من إقامة صوار يمهد لتاريخ جديد يقوم على مبدأ الإيمان بالاختلاف والاعتراف بالتنوع من أجل تدعيم إنسانية مستقبلية". (عبد اللطيف كمال ، 2009 ، ص70).

ومن خلال هذه الرؤية التي حاولنا بواسطتها الإمام بالحقيقة الجغرافية والتاريخية، وحتى الثقافية للمتوسط فإنه بإمكاننا طرح القضية الجوهرية المتعلقة بالحدث المتوسطي *Evénement méditerranée* فما الحدث؟ وما الحدث المتوسطي؟ الحدث هنا غير ملتصق بنظرة فلسفية، فهو لا ينتج ذاته من خلال بحثه في قضايا التي اهتمت بها الفلسفات التقليدية، إذ لا يمكننا أن نجعل منه ماهية ثابتة، محددة. وإنما هو دائم التطور والتغير. هذا لا يجب النظر إلى الحدث المتوسطي إلا داخل تنقلاته وتحولاته المنجزة عبر الزمن، هذا ما تؤكد حديثه الحدث نفسها. فهو لا ينبثق من اللاشيء، وإنما يتواجد بفعل أحداث أخرى إلى درجة أنه من غير الممكن عزله عنها. فالحدث يصنع نفسه عن فعل ذلك. إذ لا يمكننا التفكير فيه إلا كحدث. بمعنى أن الحدث هو من طبيعة ذاته. وعليه فالتعامل معه لن يكون إلا باعتباره كذلك. يرفض الحدث النظر إليه كمجرد موضوع، أو كحادث عارض. ولا يقبل النظر إليه كتمثل جذري لشيء ما. ويظهر معلنا عن القطع مع ما هو كائن يميل لشيء ليس له علاقة بشيء آخر. إذ من غير المعقول القول إن ما حدث قد حدث وفات. إن الحدث حسب فوكو 1925-1984 Foucault لا يتجلى باعتباره موضوعاً إيجابياً معزولاً، وإنما هو ظهور متفرد *Singularité* لشيء ما. يحمل إلى شيء آخر. ومن هذا المنظور فإنه من غير الممكن أن نتحدث عن الحدث المتوسطي باعتباره مجرد رؤية تأملية فلسفية. الغاية منها التنظير فقط. وإنما هو حدث وليد تغيرات عرفها المشهد العالمي منذ أحداث 11 سبتمبر 2011.

وبالإضافة إلى حالة التغيير والتطوير الموسوم بـ"الحادث". نجد ميزة أخرى أساسية تميزه. وهي خاصية الإبداع *Création* إن "الحادث عنصر مبدع، يبدع الزمن الذي يتلو اكتماله. ويبدع العلاقات، والتفاعلات، والصدامات، والمواجهات، وهو مبدع عندما ينجز نقلاً لتلك التمثلات التي اكتسبها، أو التي عايشها كصدمة بالغة الخطورة. إن الحادث يمنح المشروعية لخطاب التاريخ لهذا نجد المؤرخ يطمنن ويرتاح له، ارتياحاً هو بالقدر نفسه قلق تجاه صمت المصادر" (Farge Arlette, 2002, P112).

لا قيمة لخطاب المؤرخ إذا إلا داخل الحادث فبفضله يعرف إنوجاده. هنا تبدو مفارقة أخرى بحيث لم يعد ينظر إلى الحادث انطلاقاً مما هو عليه. وإنما يتم الالتفات إليه من موقع أنه صار موضوعاً لتبرير ما لم سيحدث بعد ذلك. هذا ما يحملنا إلى القول باستمرارية، وبلا نهائية الحادث. لكونه سلسلة متتابعة من الأحداث، فهو لن يعرف اكتمالاً. لأن الاكتمال نفسه حدث. وعليه الحادث متعذر عن النفاذ. والاكتمال.

إن حدث 11 سبتمبر 2001 الذي يجعل منه محمد أركون مثلاً رئيسياً يسمح له بشق طرقاً نحو التفكير في قضايا جديدة مثل التفاته إلى قضايا المتوسط. لا يرى فيه أركون من هذه الزاوية أنه حدث نهائي بمجرد ما أعلن عن اكتمال الأعمال الإرهابية، والعمليات التفجيرية التي تلت سقوط جدار برلين. وعليه لا يمكننا قراءة أعمال أركون وكأنها أعمال مكتملة، أو باعتبارها مجرد أعمال نرجع إليها لحظة التنظير لقضايا ما.

التفت محمد أركون منذ بداياته الأولى إلى نسج الأسئلة، والعمل على إيجاد حلولاً عينية لها بعيداً عن التأمل النظري، إن الحادث لديه لا يحمل حيادية في ذاته. لكونه منتج اجتماعي، وسياسي، وثقافي، وتاريخي، وحتى أنثروبولوجي. من المتعذر الجزم إنه يمكننا تحديد الحادث إذا لم نأخذ بعين الاعتبار حالات الهيمنة الموزعة بصورة واسعة داخل المجتمع: "إن الحادث التقاء بين الغيريات *Altérités* فهو مدعو إلى تلقي تمثلاته ومصيره الخاص به. عما تحمله الغيريات التي بإمكانها أن تكون صراعات اجتماعية، ومعارك سياسية. هذا ما يجعل الحادث يحمل في ذاته مرونة مما يؤهله إلى أن يكون مصدراً للنظر التاريخي، والسوسيولوجي..." (محمد أركون، 2001، ص18).

ويعتقد محمد أركون بأن الفضاء الجغرافي- التاريخي المتوسطي، يشكل نطاقاً حضارياً له خصوصيته، بالقياس إلى نطاقات حضارية أخرى، والعالم العربي- الإسلامي ينتمي إلى النطاق المتوسطي الذي تنتمي إليه أوروبا أيضاً، وهذا يعني أنه أقرب إلى الغرب منه إلى الشرق، لأن الفكر الذي سيطر علينا وعلى الأوروبيين، هو واحد في نهاية المطاف، فهو يبرز من خلال تيارين أساسيين: الديانات التوحيدية، والفلسفة اليونانية، ولما

كانت أوروبا قد سبقت عالم الإسلام إلى دخول الحداثة يقول محمد أركون: واكتساب الحريات الديمقراطية، فإنها تستطيع أن تمد يد المعونة لأبناء الضفة الأخرى من فضاء المتوسط، لكي يدخلوا هم أيضاً في عالم الحداثة"، هذا ما مكن محمد أركون أن يجعل من هذا الفضاء حدثاً يعج بالتحويلات والتنقلات لمختلف شعوبه. فلقد كان فضاءاً للسجلات والمعارك الفكرية التي قادها أركون نفسه منذ بداياته الأولى، عندما كان يتحدث عن الإسلام كحدث، لكونه دين مرتبط حسب محمد أركون: "بظروف تاريخية معينة يتأثر بها ويؤثر فيها. والظروف المبنية عنها لم تعد ذاتها الظروف السائدة حالياً، وبالتالي فهو حدث معرفي للتحويل والتغير، والدليل على ذلك أن الإسلام الحالي الذي استخدمته أنظمة ما بعد الاستقلال يبدو تحريراً ومؤدجاً إلى أقصى حد، ولم تكن هذه هي حالته في العصر الأول. فقد كان عندئذ حياً فاعلاً واعدداً بالتقدم، وصنع حركة التاريخ" (Arkoun, 2004, P128). لقد ارتبط هذا النوع من الحدث بالسجلات والنقاشات التي فتحها محمد أركون مع كبار المستشرقين، الذين كانوا يلحقون بالإسلام توصيفات تتعارض، وتتناقى وروحه، بحيث يحطون من قدراته على استيعاب الحداثة. وأحياناً ينسجون حوله خطأً مضخماً تجعله ديناً متعالياً لا يمت بصلة إلى الواقع. حيث من المتعذر انخراط حقيقته داخل عالم البشر. في حين نجد أركون المتأخر يفتح بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 على حدث مهم، يفعل ويحرك الحدث الأول: حدث الإسلام. إذ يواصل تعميق الرؤية العلمية لهذا الأخير، ما مكنه من طرح أهمية حضور الفضاء المتوسطي كعامل موحد للشعوب التي وحدتها العوامل التاريخية، والثقافية. وهذا ما جعلنا نرى في أطروحته حدثاً، سميناه بالحدث المتوسطي لما تحمله فكرة المتوسط من خصوبة وليونة في تحقيق ما عجزت عنه الأديان نفسها، والسياسات عموماً.

وفي الواقع فإن ابتكار مثل هذا المفهوم L'événement Méditerranéen كان ولا يزال نتاج لقراءتنا المتواصلة والمتأنية لمشروع محمد أركون، الذي يمكننا من توزيع فكره على فترتين أساسيتين ميزتا بناء مشروعه الفكري. فثمة في اعتقادنا محمد أركون الأول الذي حاول التفكير في الحدث الإسلامي، من خلال تناوله بالبحث والدراسة قضايا الظاهرة الدينية. ثم هناك محمد أركون المتأخر والمفتوح كلية على ما نسميه بالحدث المتوسطي. ويمكننا بهذا التوجه الانعطاف نحو ما هو حضاري-كوفي، وهو انعطاف مكنه من ابتكار كفاءات جديدة كل الجدة، ومستحدثة كل الاستحداث جعلته يحسن طرح القضايا الأساسية المتعلقة بالفضاء المتوسطي، وفي الوقت ذاته سعى عبر هذه الكفاءات إلى إيجاد الاقتراحات العلمية التي مكنته من



تحقيق رؤية أصيلة تسير بمشروعه نحو عرض إمكانيات الكشف عن هوية متوسطة، توحد شعوب الضفتين. والأمر هنا يتعلق بابتكاره للايستمولوجيا المبرمجة L'épستمologie Programmtique التي يتولى أمرها الباحث- المفكر، Chercheur Penseur وليس مثلما كان قائماً داخل الايستمولوجيا النظرية التقليدية حيث منحت الأولوية للمفكر- الباحث Le penseur-Chercheur. ثم إن هذا الانعطاف يبحث عن الأنسنة في السياقات الإسلامية، ويبحث عنها في السياقات المتوسطة، وبذلك يحقق خطوة أساسية نحو تفعيل حقيقي لما يسمى بـ محوار الأديان التوحيدية الثلاثة. طبعاً يحدث هذا بعيداً عن صراخ وضجيج المؤتمرات، والملتقيات الدولية، التي لم تحقق إلى غاية اللحظة إلا مزادة عن الإسلام، وعن مكسبات الأنوار.

إن الحدث المتوسطي يُحدث تماثلاً مع ما ينعته أركون بالحدث الإسلامي من حيث الكيفيات، والأهداف التي عمل أركون لأجل بلوغها طوال مشروعه الفكري. إذ يقدر ما يمكننا الحديث عن وجود حدث إسلامي لديه. فإنه يمكننا وبالتقدير نفسه الحديث عن حدث متوسطي، هذا ما عمل على تدشينه محمد أركون في الفترة المتأخرة من مشروعه، والتي كانت كما أشرنا نتيجة حدث هو الآخر مهم ومفصلي: ضربة 11 سبتمبر 2001. فالحدث المتوسطي هو بمثابة تجذير للتفكير، وتوجيهه نحو أهم منطقة على وجه الأرض. ولن يتحقق مثل هكذا تجذير إلا إذا اعتمدنا على التاريخ- النقدي، بدلا من الانحصار في تعليم كلاسيكي تقليدي، يتميز بالانغلاق والمركزية. من خلال تدرسيه لأنظمة معرفية دوغمائية. وهو بالإضافة إلى ذلك يمنحنا فرصة تصفية، وتنقية مفهوم الفضاء المتوسطي من كل تلك الاعتبارات الخاطئة المحكومة بإيديولوجيا: الغرب Occident والإسلام Islam إيديولوجيا كثيرا ما نجدها تزاود على المنطقة المتوسطية ككل. إذ وإلى غاية اليوم لم يتم فتح الثراء الثقافي، والروحي لهذا الفضاء على الممارسة النقدية، ولا يزال كما يشير أركون "عمل النقد- الذاتي جد متأخر في كلتا الضفتين من المتوسط. طبعاً لا أقصد بقول أركون دائماً بالتجريم الأخلاقي الذي لم يحظى بالاهتمام الكافي من طرف الباحثين، باعتباره موضوع تاريخي، ولا يتعلق الأمر بتلك الجرائم السياسية المنظمة في كل مكان ضد الأبرياء، والتي لم يتم تجريم مرتكبيها وإحالتهم على المحاكمة في ظل غياب القانون الذي يمكننا طبعاً فعل ذلك" (Arkoun Mohamed, 2004, P. 131)

يدعو محمد أركون الباحثين وبالأخص المهتمين بالتاريخ باعتباره العلم الذي يفتح على العديد من الحقول المعرفية. إذ بقدر ما يوجد تاريخ للفلسفة يوجد بالقدر نفسه تاريخ للحق، للدين، للاهوت، وتاريخ للأدب

، وتاريخ للفنون... إن الثقافة المتحررة يقول أركون: "من كل الإكراهات لا يمكنها النفاذ وبصورة دائمة على الانعتاق من الشرط الإنساني إلا إذا تم مرافقته في كل ابتكاراته نوع من العلاقة النقدية التي أحدها يقول أركون ب ثلاث أفعال: الاختراق Transgression الزحزحة Espucement والتجاوز "Dépassement" (محمد أركون، 2011، ص 308).

2- الإيستمولوجيا المبرمجة وفلسفة الأمل:

### 1.2. الإيستمولوجيا المبرمجة:

لا تلتفت الإيستمولوجيا المبرمجة L'epstémologie Programmatique وعلى خلاف الإيستمولوجيا النظرية L'épstémologie Spéculative إلى شحذ المفاهيم وأنظمة الفكر المتواجدة بداخل كل نص مكتوب، أو بداخل كل خطاب معلن (ملفوظ)، وإنما تنخرط ضمن الصيرورة نفسها المتعلقة بإيضاح المعنى قصد التمكن سلفا من دمج ومزج الإشكالات الخاصة بما تم تلقيه، وتعرف الإيستمولوجيا المبرمجة بنمائها وازدهارها لحظة تمكنها من إنجاز العبور الضروري من المؤسسة الشفهية. قيل- الحديثة Pré-Moderne للفكر إلى المؤسسة الحديثة، أو حتى الفو-حديثة Méta-Moderne للمعرفة النقدية، الراضة لمغادرة ما تبقى من استعمال اللغتين تاريخيتين، متباعدتين من جهة، لكنهما متعايشتين دائما في الفضاء المتوسطي" (محمد أكون، 1998، ص 20).

إن الإيستمولوجيا التي ينظر إليها محمد أركون باعتبارها الأمل Espoir الوحيد الذي بقي أمام شعوب الضفتين ليتوحدا حتى وإن كانوا يحملون ثقافات وأديان متعددة. إن الإيستمولوجيا المبرمجة هي المدخل الذي يمكننا من إحداث قطيعة جذرية مع العوائق التي تحول دون انفتاح شعوب الفضاء المتوسطي على حقيقة هذا التعدد، وعلى حقيقة إبداعاتها، ويحصى محمد أركون مجموعة من الاقتضاءات التي تمكن من إيجاد هذا النوع من الإيستمولوجيا على أرض الواقع. ومنه التمكن في الوقت ذاته تدشين الحوار الفعال والحقيقي بين شعوب المنطقة.

أ- اقتضاء شحن النظام التربوي بالقضايا، وبالمقدمات المفتوحة على ممارسة الثقافة-البينية Interculturalité وعلى الإبداعية-البينية Intercréativité

ب- وإيجاد الظروف المناسبة لقلب ما يصعب عكسه. لكل العلاقات القائمة بين الأولويات الوقائع المعطاة للثقافة التكنولوجية ومن ثمة أسبقية الحق في إيجاد ثقافة إنسانية طموحة. تسعى إلى تكوين ذات قادرة على تحمل مسؤولياتها في الحكم والتسيير، لا على المستوى القطري فحسب، وإنما أيضا على المستوى العالمي. والذات الأنسب هنا ترتبط بمدى سعي مؤسساتنا البحثية، والجامعية على خلق: الباحث- المفكر Chercheur Penseur، ولا كما هو الشأن اليوم تسعى لإيجاد، والإبقاء على المفكر- الباحث Penseur Chercheur. إن الباحث- المفكر يتمتع بالقدرة على الابتكار والإبداع داخل الايستمولوجيا المبرمجة، باعتماده على ما يسميه محمد أركون المنهجية التفكيكية الانقلابية الجذرية. وهي وحدها القادرة على القيام بنقد راديكالي لجميع أنظمة الفكر القائمة الموروثة من الماضي، ولكل أنظمة العقائد، واللاعقائد التي ترافقها، إلى أن محمد أركون يؤكد دائما على إنه يقصد في الوقت ذاته الأنظمة الفكرية المزينة، أو المجلّلة بالبريق الخادع للعلم (Arkoun Mohamed, 2004, P134)

ربما تكون شخصية الباحث المفكر التي يقترحها علينا محمد أركون شخصية حاملة، لكونها تسعى إلى تدشين فلسفة الأمل عبر ايستمولوجيا لم يعرف إلى يومنا هذا سبيلها داخل مؤسساتنا العلمية. وإلى الواقع عموما. ومن هذا المنطلق تبدو لنا طوبائية محمد أركون في سعيه لإيجاد متلقي مثالي يتلقى أعماله وبحوثه، أي إمكان إيجاد جمهور مهياً علمياً لتلقي أكثر الأبحاث الصارمة والجادة. بل لا يكتفي بتلقيها فقط، وإنما بالتوسيع من دائرتها عبر الترويج لها، وتوزيعها بشكل كبير، ويقوم بنشرها بين من هم حوله، عن طريق الحديث الشفهي، أو الكتابة أو الممارسة العلمية، وفي هذا الشأن يرى محمد أركون بأنه يحلم بجمهور غير موجود لا في الجهة الأوروبية، ولا في الجهة العربية الإسلامية، إنه يحلم بجمهور مستعد لتلقي البحوث الأكثر انقلابية، والمفككة لكل الدلالات والعقائد، واليقينيات الراسخة. وهذه البحوث الريادية أو الاستكشافية هي وحدها القادرة على فتح الأبواب الموصدة أمام التاريخ (محمد أركون، 1998، ص7).

وهنا يبدو لنا من الوهلة الأولى توجيه مشروع محمد أركون إلى الطموح القائم أساساً على تفكيك حقلين من الفكر وليس حقلاً واحداً. ليس الحقل الفكري العربي الإسلامي هو وحده المستهدف والمعني بالنقد والتفكيك، وإنما حتى الحقل الفكري الغربي الذي كثيراً ما أخذته العزة بالإثم عندما أعلى من شأن حدائته،

وأدار وجهه عن باقي الشعوب التي اعتبرها غير مؤهلة لتلقي عناصر الحداثة. إني أهدف كما يقول محمد أركون إلى تجاوز المنهجية الوصفية أو السردية، إذا لم تكن التبجيلية أو النضالية - السياسية المتبعة من قبل التاريخ في كلتا الجهتين. وإني أسلط أضواء المنهجية النقدية - التفكيكية على الممارسة التاريخية التي حصلت في الجهة العربية - الإسلامية. كما في الجهة الأوروبية المسيحية أولاً ثم العلمانية ثانياً، فالنقد هنا حسب محمد أركون يشمل المسار التاريخي بكامله وليس الجزء منه فحسب.

## 2.2. فلسفة الأمل والفضاء المتوسطي:

ترتبط في تصور محمد أركون فلسفة الأمل برؤية الفضاء المتوسطي يتوحد من جديد، بعد أن كان كذلك في القرون السابقة حينما كانت الأديان والثقافات تتعايش سوية فيما بينها من دون عنف مادي، ولا عنف رمزي. هذا ما حاول أركون المتأخر التأكيد عليه في الكثير من كتاباته ولقاءاته ومقابلاته، بحيث لم يتوانى من توجيه اللوم للجانبين: الجهة الغربية، والجهة العربية - الإسلامية. إن ضربة 11 سبتمبر أكدت لنا مدى بشاعة الدوغماتيات وبربريتها، سواء ظهرت بلباسها الأصولي الديني أو الأصولية العلمية، الحداثية. مما جعل محمد أركون يتهم الحداثة الغربية، وما ألت إليه من تكريس لخطابات الوهم، في ما أصاب العالم في 11 سبتمبر.

لا يتعلق الأمر بتجريم الحداثة أو محاولة تجريدتها من إيجابياتها، وإنما هو نوع من التحسيس *Sensibilité* باعتباره السبب المباشر في تأجيج الصراع بين الإسلام والغرب. إن هذا الغرب كما يرى محمد أركون كان سبباً في انتشار الأصوليات المعاصرة، لكونه انتصر لمدة قرنين، وقضى على المضامين الدينية السابقة. وأحل محلها العقل الحديث الذي ينتصر بدوره للعلم، محتكراً بذلك السلطات، الفكرية والعلمية والسياسية. أما العالم العربي والإسلامي فكان ولا يزال يعيش التهميش والإقصاء، الممارسين عليه منذ بدء تحلفه، وتعرضه للاستعمار. لقد أنتجت الأصولية الدينية في العالم الإسلامي عُنفًا بالقدر نفسه الذي أنتجته الأصولية الحداثية. وعليه تقيم بداخل الفضاء المتوسطي نوعان من الفلسفات: الفلسفة السياسية الموروثة عن الحداثة. والفلسفة اللاهوتية الموروثة عن العصور الوسطى. والفلسفتان أنتجتا دورهما سياجا دوغماتيا حال دون إمكان الحديث عن أي حوار ديني كان أو ثقافي. إذ لا يمكننا أبداً أن ننكر على سبيل المثال ما نجم عن

الحدائثة من صدامات، لكونها كرسست في ذاتها الصراعات الثنائية. فهي من طبيعة صراعية Conflictuel. هذا ما يدفع للتعجيل بالقول بتخطي هذه الصراعات لكونها تورطت في الإبقاء على الصراع داخل الفضاء المتوسطي، حتى وإن كان ذلك الصراع يحتمي أحياناً وتحتضنه بعض الخطابات التي ترفع من شأن حقوق الإنسان، والسلام الدائم، والتسامح الديني. وعليه بقدر ما سعت الحدائثة إلى تفعيل التعارضات الثنائية، التي ميزت الميتافيزيقا الغربية: العقل/الإيمان، والخير/الشر والحق/الباطل، والمقدس/الديني، والمدينة الإلهية/المدينة الدنيوية، والمتعالي/المحيث، التي تكون قد حملت بالقدر نفسه واشتركت مع ما كانت تقول به الديانات التوحيدية. فالميتافيزيقا الغربية لم تقطع صلتها نهائياً باللاهوت الديني، ولم يحدث هذا أبداً منذ لحظة ميلاد العقل. إن مثل هذا التوتر يؤدي حسب محمد أركون إما إلى مضاعفة القطائع المرفقة بالتيه والضياح. وإما تؤدي إلى زيادة التفاعلية التربوية، والاستكشافية بهدف فتح المجال أمام إمكانات جديدة للفكر (Arkoun Mohamed, 2004, P.127)

إن حدود إمكانات الحوار لا تقف عند وصف الخطابات المؤججة للصراع والتوتر بين الضفتين، والتي ينتجها الأصوليون من كلا الطرفين إذ بقدر ما يؤكد الغرب على ضرورة محو خصوصيات إمكان حدائثة الإسلام، نجد ذات الأصولية تساهم في الترويج لمثل هذا الموقف بحيث تعلن عن عدم اعترافها أصلاً بحدائثة الغرب وكأنه يمنعها ويرفضها. "ولقد أغلق العقل الدوغمائي ما كان مفتوحاً، ومنفتحاً حول ما كان يمكن التفكير فيه، بل ما كان يجب التفكير فيه إلى ما لا يمكن التفكير فيه. ونتج عن ذلك تغلب ما لم يفكر فيه أثناء قرون طويلة، على ما يجب التفكير والإبداع فيه" (هربرت هيركومر، 2009، ص 101)، وضع مأساوي لا مخرج منه إلا بابتكار ما ينعتة محمد أركون بالايستمولوجيا المبرمجة التي يتولى إنشاؤها الباحث- المفكر. والذي يتمكن في نهاية الأمر من بلورة ما يسميه محمد أركون دائماً بالعقل الاستطلاعي المنبثق Raison émergente الذي يكافح في تصوره على كل الجبهات ويرفض أن ينحاز إلى أي جهة. وإلى أي دين بل هو عقل ينتمي إلى مذهب الاهتمام الفلسفي المنهجي البناء والمنهج الذي سيصطلح عليه محمد أركون بالمنهجية التفكيرية الانقلاية الراديكالية. باعتبارها المنهجية القادرة على خلق فلسفة جديدة، نعتها أركون بفلسفة الأمل، وهو منهج ارتيابي شكّي، يشك في كل ما ينطق به العقل، ويحاول تأسيسه كمذهب لا مذهب سواه، ويعمل التيار المعروف بالمعتزلة في قضية خلق القرآن، على أنه لا سبيل البتة للعقل البشري

أن يتوسط بين الخطاب الإلهي، والخطابات البشرية، دون أن يضع الأولى في السياقات الدلالية والقوانين البلاغية، والوسائل الاستنباطية والمبادئ المنطقية التي تتصف بها الثانية (محمد أركون، 2011، ص 300). إن العقل المنبثق الاستطلاعي لا يفضل أي جهة أنثروبولوجية في بحثه عن المؤهل القادر على إيجاد المشترك بين بلدان المتوسط ولأجل ذلك يطرح محمد أركون السؤال الذي سيجعل منه أساساً ويكون بمثابة الأفق المنفتح الذي تتمكن من خلاله فهم أسس هذا التوجه: كيف يمثل كل بلد ينتمي إلى هذا الفضاء المتوسطي في برامج وكتبه التعليمية، خاصة تلك المرتبطة بالتاريخ. وبالجزغرافيا؟ وكيف تمثل عادات وتقاليد الآخر وتنظيماته الاجتماعية والسياسية وطموحاته، وإخفاقاته ونجاحاته، وانتصاراته؟ سؤال يضعنا أمام اقتضاء ممارسة التفكيك، تفكيك الأساطير، والقوالب المغلقة المحكومة بما ثقافة كل بلد من بلدان المتوسط، ويوصي محمد أركون بضرورة تفكيك الفضاء الخاص بالحقل التربوي إذ أن الممارسة التفكيكية وحدها قادرة على تطهير الوعي الجماعي، وتهيئة وترتيب الظروف الملائمة فعلاً لإقامة صوار ثقافي وديني متماسك، وحققي. وليس مجرد صوار وهمي، مليء بالعويل والصراخ. تفكيك يسير بنا في كل مرة نحو وعي المصير المشترك الموحد للفضاء المتوسطي.

ومن هذا المنطلق يمكننا الحديث كما يشير محمد أركون إلى إمكان الكشف عن هوية متوسطة. ولكن المتوسط الذي يؤكد عليه محمد أركون هو متوسطيات. يقيم فيه المتوسط بداخل الجمع "إذ من الممكن أن تتعايش فيه البلدان المتجاورة التي يميزها التعدد والتنوع، لا الوحدة، والتوحد. ولا يزال محمد أركون يرى بأن شباب الضفتين يواصل تلقي تعليم للتاريخ الذي يزيد من تعميق الجراح، وهو تعليم مليء بتحديات إيديولوجية وبمجهالات مؤسسة، وحتى مقدسة داخل الأديان التوحيدية الثلاث" (محمد أركون، 2001، ص 268).

ويتيح لنا العقل الاستطلاعي، أو المستقبلي الجديد فرصة الإسهام في النقد البناء للحدثة الغربية من جهة، ومن تفكيك الخطاب الإسلامي المعاصر من جهة أخرى، ويضع محمد أركون كلا الخطابين في مستوى واحد باعتبارهما محكومان بنتيجة مشتركة، متمثلة في سعيهما إلى الهيمنة والتسلط. فهما موجهان بإرادة الجهاد والحرب العادلة *Guerre Juste* إن العقل الاستطلاعي هو بمثابة المغامرة الجديدة للفكر البشري وهو مرادف في اعتقادنا لفكرة ما بعد- الحدثة، فأوروبا كما يشير هاشم صالح تدخل الآن في مرحلة جديدة سوف تؤدي إلى تشكيل عقلانية جديدة أوسع من كل ما سبق. ولن تشكل هذه العقلانية إلا بعد النقد

الجدري للحدث. وفرز إيجابياتها، وسلبياتها، وهذا ما فعله ولا يزال يفعله فلاسفة أوربا تحديداً منهم ريكور، هابرماس، فاتيمو.

3- الحدث باعتباره أفقاً للحوار الممكن:

1.3. حوار الأديان:

ما يدور اليوم حول وجود حوار بين الأديان، لم يكن في منظور محمد أركون إلا حواراً سطحياً. وهو كذلك لكونه يترك بشكل متواصل ومنتظم المسائل المفتاحية الأساسية، التي ورثناها عن التركيبات اللاهوتية والعقائدية الدوغمائية في الأديان التوحيدية الثلاثة. ورثناها عنها كأسيجة مغلقة، أو كسجون لا نستطيع الخروج منها. وللتمكن من الانفلات من الحوارات الوهمية، التي لم تحقق إلى اليوم تقدماً نحو إنشاء متوسطيات حاملة لهوية متوسطة في العموم. يقترح محمد أركون تدشين كيفية في فهم تاريخ المنطقة، كيفية عميقة تحاول التعامل مع تاريخ فضاء المتوسط بجدرية. مبتعدة عن كل قراءة سطحية ومبسطة. إن الحوار بين الأديان والثقافات لا يقوم في تصورنا على تنازلات، وإخفاء الحقائق الأساسية. وربما كانت تلك الحقائق ولا تزال تُبقي على فكرة التوحيد الخيالية بعيدة عن المنال، بل يمكننا القول أنها السبب في مضاعفة حدة التوتر في المنطقة. فالحوار القائم على خطابات الوحدة، لم تزد إلا شقاً وشرحاً للهوية المتوسطة. لأنها اعتمدت على إقامة خطابات تركز على فرضية "إرجاع حق ضاع" (محمد أركون، 2011، ص 66)، فالمسيحية ترى بأن الإسلام أزح وحدة المنطقة عندما صار منافسها الأوحده على السيادة في منطقة شمال إفريقيا، حيث بدأ يهيمن على المنطقة منذ 632م - 732م باعتباره "الدين المنافس غير المتوقع كما يشير مفكرو الغرب على الإطلاق، وفرض سنة أخرى من النبوة أو دين التوحيد، مما أدى إلى حصول شرخ وتمزق في السلام الروماني سبب ظهور الإسلام، وقد أصاب ذلك الشرخ كل حوض البحر الأبيض المتوسط" (Arkoun).

Mohamed, Stora Benjamin, 2007, P17)

إننا لا نفضل في واقع الأمر التواصل معرفياً مع أولئك الذين يؤججون بؤر الخلافات والاختلافات بين ضفتي المتوسط، بل نحن نسعى إلى الاعتماد على فكر أولئك الذين اتخذوا من الحوار أفقاً لإيجاد مناطق الوحدة

بين الـضفتين. ومن ثمة العمل لتخفيف من حدة الخصومة بينهما، لكن هذا الحوار على الرغم مما قد يحمله من نوايا الصادقة والقادرة على سد الطريق أما الأصولية المعششة في الفضاء المتوسطي. فإن الحوار الذي يدعو إليه البعض بين الأديان والثقافات أو بين الحضارات كان ولا يزال حواراً سطحياً متسرعاً. إلى درجة أنه صار مجرد شعارات يلتقي فيها المؤتمرون لوضع قرارات لا يمكن ترجمتها نهائياً على أرضية الواقع، لأنها قرارات تحكمها التنازلات والمناورات وإخفاء الحقائق. وكأن أصحابها لم يتناولوا التاريخ الحقيقي للأديان بالبحث والدراسة المعمقة لها. إذ أن العديد من المواضيع لم يتم التطرق إليها، كموضوعات العقائد والحروب، والخصومات... من هذا المنظور يقترح المشروع الأركوني منافذ نحو خلق الهوية المتوسطة المفقودة. إن السائد هو أن كل دين يرفض الاعتراف من وجهة نظره بعقيدة الأديان الأخرى، وكل دين يعتبر نفسه ديناً متميزاً وعلى حق. ولكن الأديان في حقيقة الأمر تحيل كلها على دين واحد "إن تجاوزهم للحقيقة الدينية الحصرية لا بد أن ينطلق من مركزية مقولة الإنسان السابقة لمقولة الدين، وهو سبق العشق، وذلك معناه أن كل البشر حاملون لمعنى الألوهية. فلقد كشف الله عن الحقائق التي تتجاوز اختلافاتهم، وهي حقائق مشتركة بين الأديان هو ذاك الأحد في قلب المتعدد المختلف. وذلك هو سر العالم، ففي تلك اللحظة يصبح البشر والأديان المرآة الموجودة في الأرض. ومن هنا يظهر اقتضاء التوجه نحو أنسنة الدين وإخراجه من بعده القبلي، فالجوهرية الإنسانية سابقة عن الحداثية الدينية، فعندما نقول المسيحية أنه لا خلاص خارج الكنيسة، فإن مثل هذا الإقصاء يشكل وهم المركزية، حيث لا مركز، ولا وجود إلا الله. فالله هو نحن كلنا، ولكن لا أحد من الله نفسه، فالأنسنة وحدها هي التي بإمكانها أن تنقذ في اعتقادنا الحوار القائم بين الأديان التوحيدية الثلاثة.

### 2.3. آفاق حوار الأديان:

ومن الصعوبة فك السياج الدوغمائي المشكل منذ العصور الوسطى، والذي جعل من الدين عقيدة متحجرة أزلية، وأبدية. فكل دين يقول أركون "يشكل أرتودكسية تقدم نفسها كحقيقة مطلقة لا تقبل النقاش، إن ضربة 11 سبتمبر 2001 تشكل حدثاً كاشفاً، وفاضحاً لانغلاقنا على أنفسنا داخل أدياننا أو أمننا أو طوائفنا أو مذاهبنا، أو قيمنا" (محمد أركون، 2011، ص 66). ولم تكن تلك الضربة مُستغربة أو مفاجئة



لأنها كانت نتاج برامج تعليمية سلفية وعقلية دوغمائية، تهيمن على المجتمع بأسره، فالواقع أنه لم يحصل إلى غاية اللحظة أي نقد جذري للبنية اللاهوتية المسيطرة على الفرد العربي منذ مئات السنين، وبالتالي استعص عليه الدخول إلى الحداثة الفعلية. ولن يتحقق له ذلك إلا إذا أنجز تفكيكا لهذه البنية، وتتجلى هذه الممارسة في بيان العلاقة الكائنة بين الكتابة والنص والقراءة في كل تعقيداتهما. ويجب أن نعلم بأن محمد أركون يرى بأن النص أي نص ما أن يتم كتابته حتى ينفلت من يد كاتبه، وتصبح له حياته الخاصة بكل ثراءها. ونادراً ما يفهم النص من قبل قارئ يأتي إلى النص بصفة حالة طارئة. إن الدين الإسلامي، لم يستفد حتى الآن حسب ما يشير محمد أركون من المكتسبات الجديدة، والتساؤلات المبتكرة للعلوم الاجتماعية المطبقة على وجه الخصوص على الأديان. وهذا التقصير في استعارة فتوحات ومناهج هذه العلوم لا يخص تعليم الإسلام في البلدان العربية أو الإسلامية فحسب وإنما "هو تقصير عام بتعليم الإسلام في فرنسا، إذ تكتفي هذه الأخيرة بنقل ما يقوله المسلمون عن أنفسهم وعن تراثهم، وعلينا أن ندرس الإسلام بطريقة حديثة. ففيما يخص الأديان ينبغي على العلوم الاجتماعية أن تجذر أكثر من تساؤلاتها حول الذات الإنسانية أو الشخص البشري. ومن المعلوم أنهما يمثلان الموضوع الأساسي والذات الدارسة للأديان في آن معا" (Arkoun, Mohamed, Stora Benjamin, 2007, P17).

ثمة قوى عملت على تأميم الدين لصالحها لا بد من مواجهتها، سواء تعلق الأمر مثلما كان في السابق مع الدولة الوطنية الحديثة العهد بالاستقلال، أو مثلما تفعل اليوم الأصولية الإسلامية. ولقد عانى الإسلام ولا يزال يعاني من الاختزال الرهيب لإمكاناته الحية، وهذا ما ساعد على فشل كل محاولات الحوار بين الأديان والثقافات، فالمفاوضات بين دول *Interétatique* القائمة بين الدول ما بعد الكولونيالية، ودول الغرب آلت في مجملها إلى الإخفاق والفشل، إخفاق لم يتم تجاوزه بفعل العوائق، لأن لا واحد من زعماء هاتين الضفتين كما يرى أركون يأخذ بعين الاعتبار أهمية تدريس سوسيوولوجيا الفشل وسوسيوولوجيا النجاح وعليه فإن النقد- الذاتي السابق عن كل تفاوض لا يزال مغيبا في كلا الضفتين من البحر المتوسط" (محمد أركون، 2011، ص66).

ويقدر ما ينتقد محمد أركون الغرب، ينتقد في الوقت ذاته المشرق المسلم، وينتقد في الأخير التصلب العقائدي السائد عندنا من خلال تيارين أساسيين: التيار القومي المتعصب، والتيار الأصولي المتعصب دينيا، وهذين التيارين يشكلان تيار واحد يتميز بشعبويته، وديماغوجيته، تيار مسيطر عندنا، يشيطن الآخر إلى أقصى

حد ممكن، ولا يعترف به كإنسان. إن الآخر يتحول في نظره إلى مجرد وحش لا إنسان. إنه الشر المطلق، كما يلقي محمد أركون المسؤولية في استحالة الحوار بين الضفتين إلى الغرب الذي تنكر للمبادئ التنويرية أثناء المرحلة الاستعمارية، عندما عامل أبناء المستعمرات كوسيلة لا كغاية بحد ذاتها. "إن مجاز فرنسا التي طالت أبناء الجزائر شاهد قوي على بربرية ووحشية الغرب، حتى وإن اعترف ساركوزي مؤخرًا بهذه البربرية إلا أنه اعترف غير كاف، بالنسبة إلى حجم المأساة. والحق أيضًا على إسرائيل التي لا تزال إلى اليوم تمارس قمعًا على الشعب الفلسطيني، ويقع الحق على الإدارة الأمريكية ومحافظيها الجدد من خلال مغامراتهم الحربية الدائمة على أراضي العرب. ولجوءهم إلى الحلول العسكرية لمشاكل تتطلب حلولاً إنسانية"، إن مثل هذه الوضعية التي أبقّت على الحوار إلى يومنا هذا مستحيلًا. وربما نفضل القول أنه لا يزال مؤجلًا إلى حين، وهذا ما يجعلنا نتجه بالإشكالية نحو منظورية أخرى غير منظورية الحوار المتمثلة تحديداً في منظورية الجوار Voisinage، ولا تعود في اعتقادنا أسباب هذه الاستحالة إلى وجود هذا التوتر الدائم بين شعوب الضفتين. لأننا نسلم بإمكانية وضرورة الإبقاء عليه دون السعي من أجل التخلص منه. والمطلوب على خلاف ذلك تمامًا. حيث يجب الإقرار والاعتراف بأهمية الإبقاء على عناصر التعارض والتناقض بين شعوب البلدان المتجاورة، "فإذا عمقنا النظر في هذا التوجه من حيث الإقدام على تناول اللامفكر فيه والممتنع عن التعكير المتوغل والمتراكم بداخل البلدان المتجاورة لمنطقة الفضاء المتوسطي، فإننا نجد الغرب يدير ظهره لكل ما يمت بصلة إلى المعطيات التاريخية التي عاشتها الجبهتين، فثمة العديد من الأحداث التاريخية التي لم يتم تناولها بالبحث، إن سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين سنة 1453 إلى غاية سقوط الرجل المريض سنة 1945، لا تزال هذه الحقبة حسب محمد أركون تنتظر كتابتها" (Arkoun Mohamed, Stora Benjamin, 2007, P126).

يؤكد محمد أركون على ضرورة القطيعة مع الثنائية الإيديولوجية للإسلام والغرب المتواجدة في كلا الضفتين: الشمال- الجنوب من البحر الأبيض المتوسط لتشمل بعد ذلك على كل الدائرة الجيوسياسية للغرب، حيث نجد حضور الولايات المتحدة الأمريكية داخل المشهد منذ 1945. إن تحليل محمد أركون وتفكيره، وقعا كليهما في فخ قضية صدام الحضارات. فنحن نعلم ما آلت إليه إيديولوجية الحرب ضد محور الشر من مضاعفاتهما للانغلاق داخل دوغمائيات متصلبة أكثر من تلك التي عرفتها القرون الوسطى من طرف اللاهوت. فبعد المعاناة التي عاشتها الشعوب، والتي مست على وجه الخصوص ثقافتهم، وآمالهم المشروعة

والتي تعرضت للتحطيم باستمرار. فإنه يبدو من الضروري التفكير في الفضاء المتوسطي إذ لا يجب استثناء أي من تلك الأخطاء التي أضفي عليها نوع من القداسة مثل تلك التي كرسها الوعي الجماعي أو الوطني، إن مثقفي البلدان المتجاورة المنخرطين في الخط النقدي الحر والمحرف بدلا من الغوص في الخط التبجيلي المؤدلج الذي لا نهاية له، مدعون إلى أن ينخرطوا في معاودة قراءة جذرية لكل موروثهم الثقافي والديني، وأن يعيدوا النظر في فهم المصير التاريخي الماضي والمستقبلي لشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك بأن يتجاوزوا كل الأخطاء الدوغمائية والإيديولوجية المتحجرة والقيم المفترضة لأنها أبدية أو خالدة. وعليهم تجاوز كل الصدامات التدميرية التي لا طائل منها" (محمد أركون، 2001، ص 39).

#### 4- خاتمة:

وفي الأخير يمكننا تلخيص ما ورد في مضمون بحثنا هذا على ضوء أبرز النتائج المتحصل عليها، حيث نفر بأن محمد أركون تبني رؤية معاصرة تأخذ بالنظرة الفلسفية لمفهوم الحوار الديني، الذي يمكن تجاوز عراقيل تفعيله بتنفيذ مشروع "نقد العقل الإسلامي"، ومن ثمة إعادة تحديد المسألة الدينية، وبحثنا في ذات الوقت على وجوب ممارسة عملية التفكير ضمن منظومة فلسفية يُؤخذ فيها السياق التاريخي للدين كمقدمة منهجية لتأسيس عملية الحوار الحقيقي وتحقيقه بين الأديان، وكذلك ينبغي علينا تجاوز الطرح اللاهوتي لموضوع الحوار بين الأديان، باتجاه الطرح الفلسفي بحسب القراءات المعاصرة، وبالتحديد منهجية الإسلاميات التطبيقية عند أركون، (وهنا تكمن مفارقة كبرى بين التطبيقية التي تتصف بها هذه المنهجية وبين الطوباوية التي يتصف بها مشروع "نقد العقل الإسلامي" الذي سوف يظل تعبيرا عن طوباوية لا مستقبل لها"، والتساؤل المنطقي هنا هو: ما فائدة طوباوية صاعدة من رحم فلسفة مضادة تسعى إلى تأسيس فلسفة على غرار فلسفة التحرر لدى العقليين أو فلسفة التحرر لدى المتصوفة؟).

ويؤكد محمد أركون بأنه إذا التزمنا بما سبق الإشارة إليه فسيصبح مدلول حوار الأديان وممارسته فعليا في الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط حقيقة على أرض الواقع، وهذا ما أمرنا به الدين الإسلامي كنظام يشتمل على جميع أبعاد الحياة الإنسانية، وكمترادف لمدلول حوار الحضارات؛ مما يُجسد البعد الحضاري لحوار الأديان في المنظور الإسلامي أي الدعوة بالموعظة الحسنة، ونبذ العنف والتعصب، وكراهية الآخر،

والتعايش السلمي بين البشر طبقا للعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة. ولتحقيق ذلك هناك لغة إبداعية تليفقية بدأت تجد طريقها إلى عقول بعض المفكرين المعاصرين في نظر محمد أركون، فيها أكثر من ينبوع حضاري يتطلب ضرورة توضيحها. وبهذا فإننا بدأنا نلاحظ بأن ما أصبح يعرف بالظاهرة الفكرية الأركونية، التي احتلت حيزا معتبرا في فضاء ثقافتنا تفرض نفسها كحقيقة فلسفية لا يمكن لأي دارس تجاوزها، ومصدر أهميتها كفلسفة تكمن في كونها معقدة العناصر، متعددة الفصول، واسعة الانتشار.

قائمة المراجع:

- 1- عبد اللطيف كمال، 2009، الإسلام والغرب، صعوبات الحوار، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان
- 2- محمد أركون، 2001، معارك من اجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، دار الساقى، بيروت- لبنان.
- 3- محمد أركون، 2001 ، الإسلام، أوروبا، والغرب- رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، دار الساقى. بيروت- لبنان.
- 4- محمد أركون، 2011، نحو تاريخ مقارنة للأديان التوحيدية، دار الساقى، بيروت- لبنان.
- 5- محمد أركون، 1998، قضايا في نقد العقل الديني، دار الطليعة. بيروت- لبنان.
- 6- هيربرت هيركومر، 2009، الإسلام والغرب. الجزء الأول، إشراف الجابري، بيروت- لبنان.
- 7-Arkoun (M.)(2004): l'espace méditerranéen aujourd'hui, Revue : Diogenè n° 206.
- 8-Arkoun (M); Benjamin (S)(2007);Quelle place pour l'islam et les musulmans dans l'histoire de France, rencontre avec Veinstein (G),(modérateur Laurentin (E) centre Pompidou, édition de la Bibliothèque et d'information.
- 9-Farge (A.)(2002): penser et définir l'évènement in terrain n°38/Dossier sur: qu'est ce qu'un évènement, cnrs, centre de recherches historiaues, Paris.